

## الفصل الثالث

### نشأة وتطور الكتاب المطبوع في العالم العربي

يرصد هذا الفصل الملابس والأحداث المختلفة التي واكبت ظهور الطباعة في منطقة الشرق الأوسط والعالم العربي، ومن ثمَّ ظهور الكتاب العربي المطبوع. ولعل القارئ قد يتعجب من تناولنا لدور تركيا في نشأة الطباعة في الشرق الأوسط، ولكن لا داعي لهذا التعجب لأننا نتناول كل مطبوع بالحرف العربي.<sup>(56)</sup>

### الكتاب العربي المطبوع في تركيا

لا شك أن ظهور الطباعة قد تواكب مع بداية عصر النهضة الأوروبية، حيث يشكل - أي ظهور الطباعة - أحد الإنجازات الفكرية، والحضارية، والثقافية في تاريخ البشرية جمعاء، وعلى الرغم من أن ساحة العالم العربي - الإسلامي عرفت سرعة سريان المعلومات عن طريق نسخ المخطوطات النادرة، إلا أن تداول تلك المخطوطات المنسوخة يبقى هو الآخر محدوداً في الزمان والمكان، إذا أخذنا في الحسبان مدى ارتفاع نسبة المتعلمين والقارئ في العالمين العربي الإسلامي.<sup>(57)</sup>

لم يكن فن الطباعة غائباً عن المسلمين، فقد كانوا على دراية به وبأساليبه إن لم يكونوا قد مارسوه عملياً في بعض الفترات في أشكاله البدائية، فقد واكبوا التحولات التي عرفها فن الطباعة منذ استخدام الألواح الخشبية حتى اختراع الطباعة بالأحرف المنفصلة، حيث ظهرت بعض المحاولات لدى المسلمين لإدخال مطابع إلى إيران، وربما المغرب، ففي أصفهان

كان المسلمون يعتمون طبع كتبهم بالحرف العربي منذ القرن 11هـ/17م، حيث ذكر الرحالة الفرنسي جان شاردين أن العلماء المسلمين قدموا اقتراحاً لإدخال المطبعة بأصفهان إلى الشاه عباس الثاني 1052هـ/1624م - 1077هـ/1666م، والذي استحسّن الفكرة وبدأ في تنفيذها، إلا أن المشروع سرعان ما توقف بعد وفاته وانتقال السلطة إلى ابنه صافي سليمان، الذي أهمل المشروع ولم يعره أي اهتمام.<sup>(58)</sup>

وقد عرفت تركيا الطباعة قبل غيرها من بلاد المشرق العربي، وبعد اختراعها بحوالي أربعين سنة، وعلى الرغم من تصدي سلاطين آل عثمان لها في أول الأمر، فقد مضت قدماً في طريقها واستطاعت بعد كفاح مرير أن تفرض نفسها وتوطد أقدامها حاملها مشعل الحضارة والثقافة إلى أرجاء الإمبراطورية العثمانية.<sup>(59)</sup>

أما السبب الذي حدا بسلاطين آل عثمان إلى الوقوف في وجه المطبعة والتصدي لنشاطها فهو الخوف من أن يتعرض أصحاب الغايات والأغراض إلى الكتب الدينية فيحرفوها، ومن خلال استطلاع الأوضاع الاجتماعية التي كانت عليها الدولة العثمانية في ذلك الوقت نجد أنه كانت توجد أعداد كبيرة من الخطاطين والنساخ في مدينة إستانبول، وهو ما يعتبر سبباً اجتماعياً مهماً في تأخير دخول المطبعة العربية إلى الدولة العثمانية، إذ إن الطباعة سوف تقضي على مهنة النسخ والخطاطة.

وعلى الرغم من اقتناع عدد كبير من كبار رجال الدولة والعلماء بفوائد الطباعة إلا أن التردد والخوف من ردود فعل العلماء المحافظين وحتى من العامة حال دون الاستفادة من خدمات الطباعة، بل حتى من استعمال الكتاب المطبوع في أوروبا، لذا أحجم المسلمون عن شراء كتب عربية مطبوعة في أوروبا مثل كتاب «القانون الثاني» في الطب لابن سينا الذي طبع في إيطاليا سنة 1593م.<sup>(60)</sup> ويمكننا القول إن اليهود المقيمين بالأستانة هم أول من أدخل فن الطباعة إلى تلك المدينة، فقد قدم إليها في أواخر القرن الخامس عشر أحد علمائهم ويدعى إسحق جرسون وأحضر معه مطبعة وحروفاً عبرية لينشر بها كتب الديانة

اليهودية المخطوطة التي كان يصعب الحصول عليها لقلّة عدد النسخين اليهود وارتفاع أسعار المخطوطات حيث يقول أورام غالانتى.<sup>(61)</sup> في الصفحة السابعة من مؤلفه «الأتراك واليهود» إن اليهود أتوا إلى تركيا من إسبانيا بمطبعتهم إلى تركيا عام 1492م.<sup>(62)</sup>

لقد استفاد اليهود من جو التسامح الديني السائد داخل الإمبراطورية للقيام بعدة أنشطة دينية، وثقافية، وسياسية برعاية الباب العالي، حتى عُرف القرنان 9-10هـ/ 15-16م بالعصر الذهبي لهذه الجالية. وكان السلطان بايزيد الثاني (1481م-1512م) قد سمح لليهود المطرودين من إسبانيا بالاستقرار ببلاده، ووفر لهم كل الإمكانيات الضرورية للعمل الثقافي والعلمي لفائدة جاليتهم؛ ومن قبيل ذلك أنه رخص لهم إقامة مطبعة سنة 899هـ/1494م، على ألا يطبعوا كتبًا بالحروف العربية والاقتصار على الحروف العبرانية واللاتينية. كما أسس اليهود على أثر هذا القرار مطبعتين بكل من إستانبول وسالونيك في نهاية القرن 9هـ/15م، أي قبل قرنين كاملين من ظهور أول مطبعة عربية بالعاصمة العثمانية.

من ناحية أخرى خشي السلطان بايزيد الثاني أن يستفيد رعاياه من الاختراع الجديد، فما كان منه إلا أن أصدر أمراً يُحرم فيه على غير اليهود استخدام فن الطباعة، وكان لتلك المطبعة التي أحضرها جرسون أطيّب الأثر في نشر الآداب العبرية وترقيتها، فقد استطاعت خلال ثلاثة قرون أن تطبع أكثر من مائة كتاب في مختلف العلوم والفنون بفضل عناية كبار رجال الطائفة اليهودية في الأستانة، وكان لهم نفوذ كبير عند أصحاب السلطان.

### الأوضاع الثقافية والسياسية في تركيا قبل تأسيس المطبعة

تطورت الحركة الثقافية في تركيا بشكل عام والأدبية منها بشكل خاص، حيث كان التوجه العام نحو الأدب.. وتأثر الأدباء الأتراك بالموضوعات الفارسية والأسلوب الفارسي، ثم الأدب العربي، وقد ظهر في هذا العهد الشغف باقتناء الكتب أيضاً، وأسست أربع مكاتب كبيرة ومهمة في إستانبول، وتم تزوين المدينة بقصور وأسبلة رائعة في جمالها،

وأطلق على عهد السلطان أحمد الثالث (1703م-1730م) عموماً في التاريخ العثماني «عهد الخزامي» للدلالة على الانفتاح الذي حصل في هذا العهد، حيث انفتحت الدولة على الغرب لأول مرة، وحصل مع بعض الدول الغربية نوع من التبادل الدبلوماسي.<sup>(63)</sup>

لذلك بعد مرور أكثر من قرنين ونصف القرن على ظهور فن الطباعة، وبعد ازدياد الاتصالات بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية على جميع المستويات، أصبح المناخ مناسباً لإدخال فن الطباعة العربية إلى الشرق والاستفادة من العلوم الحديثة، وقد كانت هناك عدة عوامل تفسر تغير المناخ السياسي، والاجتماعي، والثقافي، في اتجاه الإصلاح ومن أبرزها:

- 1- الهزائم العسكرية التي مُنيت بها الدولة العثمانية أمام روسيا والنمسا في بدايات القرن الثامن عشر، والتي دفعت بالباب العالي إلى عقد اتفاقيات سلام، والدعوة إلى الإصلاح فكان من سبل هذا الإصلاح رفع القيود عن الحريات ومنها الطباعة.
- 2- إتهاج السلطان أحمد الثالث سياسة سلمية مع الدول الأوروبية وتشجيعه على تنشيط الحركة الفكرية والعلمية، فأسس المكتبات وشجع العلماء على الدراسة والتأليف.
- 3- رسائل سفير الدولة العثمانية في باريس عن فوائد الطباعة، فلقد عرفت الدولة العثمانية المطبعة العربية بفضل مسعى سعيد أفندي ابن سفير تركيا وكان سعيد أفندي، الذي أصبح فيما بعد صدرًا أعظم، بصحبة أبيه في العاصمة الفرنسية، فشاهد المطابع ولمس منافعها العديدة عن قرب، فلما عاد إلى الأستانة بادر بالاتصال برجال الأدب، والعلوم، والفنون وفتحهم في أمر إنشاء مطبعة فرحبوا جميعاً بالفكرة.
- 4- لعبت العلاقات بين الأقليات المسيحية داخل الإمبراطورية العثمانية وخارجها دوراً مباشراً في إدخال المطابع إلى تركيا، حين قام بطريك أنطاكيا «أثناسيوس الثالث دباس» بتأسيس مطبعة في بوخارست في عام 1701م، ونجح في نشر كتابين عن الديانة المسيحية.

### إبراهيم متفرقة وجهوده في إنشاء المطبعة

ولد إبراهيم متفرقة عام 1085هـ / 1674م<sup>(64)</sup> في مدينة (قولزوار)<sup>(65)</sup> المجرية، الواقعة في ترانسلفانيا، وكانت تسمى (أردل) في عهد الدولة العثمانية، ونشأ في كنف أبوين على مذهب «التوحيد» أو «الوحداني» البروتستانتية.

وبحسب المصادر المختلفة، فإن إبراهيم متفرقة من أصل مجري، ينتمي إلى المذهب البروتستانتية. أسر في المعركة التي جرت بين الدولة العثمانية والمجر من ناحية وبين النمسا من ناحية أخرى في عام 1693م، ثم انتقل إلى استانبول حيث أشهر إسلامه مجبراً، وأطلق على نفسه اسم «إبراهيم»، ولما كان رجلاً ذكياً ونشيطاً فقد ألمّ باللغة التركية ومبادئ الدين الإسلامي في عدة سنوات.

إلا أن السواد الأعظم من الباحثين المعاصرين يرى أن تلك القصة ملفقة من قبل راهبين، أحدهما كان معاصراً لإبراهيم متفرقة، وهو «دوسوسوار»، أما الثاني الذي أتى بعده فهو «قرة جون».

لكن إذا نظرنا إلى نشأة إبراهيم متفرقة، فنجد أنه قد نشأ في بلد كان يتمذهب جل أهله بعقيدة التوحيد، وقد انتشر هذا المذهب في «أردل» في أواسط القرن السادس عشر الميلادي، ودخل أكثر الأهالي فيه، ونشأ بعد ذلك صراع شديد بين الكاثوليك والموحدين، كان سينتهي لصالح الموحدين، لولا انتهاء الحكم العثماني للمجر عام 1091هـ / 1680م وانتقال الحكم فيها للكاثوليك الذين اتبعوا سياسة التنكيل ضد البروتستانت، وبشكل خاص ضد الموحدين، وذلك عام 1099هـ / 1688م، فضغطوا على الأهالي في «أردل» ليدخلوا في مذهب الكاثوليك، وقد نهبت أموال المعارضين المصريين على موقفهم؛ فإبراهيم متفرقة الذي نشأ في «أردل» وشاهد الصراع الشديد بين المذاهب النصرانية، قد حدد موقفه من تلك المذاهب بتوجهاته العلمية والفنية. ولا يتصور أن يكون متفرقة الملم بأنواع من العلوم والمعارف متمذّباً بمذهب معارض لأرائه العلمية معارضة شديدة وخاصة إذا علمنا أن الرهبان في ذلك الوقت كانوا ألد أعداء

المطبعة، كذلك قام إبراهيم متفرقة بكتابة «رسالة إسلامية» بالتركية دافع فيها عن القرآن وفسر سبب اعتناقه الإسلام. كما فند في رسالته المذهب الكاثوليكي. وأكد أن النصر النهائي سيكون للإسلام بما أن هذا الدين تنبأ به سيدنا عيسى عليه السلام على أنه دين العالمين.

يعد إبراهيم متفرقة وهو رجل أدب، وعلم، ودبلوماسية، من أبرز رواد حركة الإصلاح في الدولة العثمانية في القرن 12هـ/18م. كان إبراهيم متفرقة رجلاً عالماً ذكياً يجيد اللغات التركية، والعربية، والفارسية، واللاتينية، بالإضافة إلى لغته الأم أي المجرية. درس الرياضيات، والعلوم، والفنون وسرعان ما أصبح متبحراً في العلوم والآداب ولقب بسبب ذلك بـ «متفرقة» أي متعدد المواهب، وهو لقب يطلق على رجال الفكر والعلم بالسرايا ممن بلغ درجة عالية من المعرفة. تقلد مناصب مختلفة بالإدارة العثمانية، حتى كلفه الباب العالي بمهام سياسية ودبلوماسية سامية وأصبح مستشاراً ومبعوثاً خاصاً للسلطان، وأجرى مفاوضات دبلوماسية سامية خاصة مع النمسا وروسيا عام 1127هـ/1715م، وفي فيينا عام 1128هـ/1716م وفي سنة 1132هـ/1720م عين ضابط اتصال ومترجماً لدى الأمير المجري راكوزي، ثم اشترك مع أحمد باشا بونفال في إعداد مشروع تحالف عثماني سويدي ضد روسيا في 1156هـ/1743م.<sup>(66)</sup>

وتأسيساً على ما سبق ذكره عن إبراهيم متفرقة، فإنه كان على دراية كبيرة بالتقدم الذي حققته أوروبا في عدة ميادين فنية وعلمية. مما بعث فيه الحماسة لإدخال بعض الاكتشافات الجديدة إلى الإمبراطورية العثمانية مؤكداً أنه يجب التمييز بين الديانة المسيحية التي لا تفيد المجتمع الإسلامي وبين العلوم الحديثة بأوروبا التي ستعود بالنفع على المسلمين، وأنه لا تعارض بين العلم والإسلام. وبهذا الفكر التحرري المنفتح على أوروبا اهتم إبراهيم متفرقة بمشروع إقامة مطبعة بالحرف العربي باستانبول،<sup>(67)</sup> وقد سنحت الفرصة في السنوات الأخيرة من وزارة الصدر الأعظم إبراهيم باشا داماد،<sup>(68)</sup> وكان من المقربين إليه حيث حصل على موافقته، ووجد كل تشجيع من لدنه لإتمام مشروعه.<sup>(69)</sup>

## تأسيس المطبعة

ترجع بداية عهد إبراهيم متفرقة في الطباعة إلى أيام دراسته في الكلية التنصيرية في (قولزوار) حيث تعلم في كنيسة كلفينية بها فن الطباعة، وذكر باحث آخر أنه تعلم هذا الفن في (قولزوار) عام 1689م على يد أشهر نحّات في ذلك الوقت وهو الطابع الشهير «ميخائيل مستوتفالوسي كيس» الذي أنشأ أهم مطبعة للمذهب الوجداني في المدينة المذكورة. وكان إبراهيم متفرقة آنذاك طالباً في كلية اللاهوت.<sup>(70)</sup>

أعد إبراهيم متفرقة بالتعاون مع سعيد شلبي مشروعاً لتأسيس أول مطبعة إسلامية بالحرّف العربي في العالم ويكون مقرها استانبول، هذا بالإضافة إلى «رسالة وسيلة الطباعة». وقد عرضا في مشروعهما الإجراءات العملية لإقامة المطبعة، وبالأخصّ تحمّلها لكل المصاريف التي تتطلبها. وقد قدما بالإضافة إلى نص المشروع، بعض العينات من النصوص المطبوعة بالحرّف العربي للصدر الأعظم الذي استحسن الفكرة ونقل كل الوثائق إلى شيخ الإسلام وبعض العلماء المقربين للسلطان، وهؤلاء وافقوا على المشروع وكتبوا تقارير على «رسالة وسيلة الطباعة» كما أصدر شيخ الإسلام فتوى يجيز فيها طبع الكتب، ماعدا تلك المتعلقة بالشرعية والفقهاء الإسلامي، وهذه الفتوى كانت أكبر سند قانوني للمشروع عند عرضه على أنظار السلطان أحمد الثالث الذي وافق عليه وأصدر «خط همايون»<sup>(71)</sup> بتاريخ 15 ذي القعدة 1139هـ/1726م، يرخص فيه لإبراهيم متفرقة وسعيد شلبي بإقامة مطبعة بالحرّف العربي في استانبول، وقد أرفق هذا الأمر بنص فتوى شيخ الإسلام على استعمال هذا الاكتشاف وإقناع الرعايا بمزاياه وخاصة المحافظين منهم، وكذلك فعل صاحب المطبعة اللذان نشر في أول كتاب يصدرانه نصوص «خط همايون»، و«الفتوى»، و«رسالة وسيلة الطباعة» وتقارير العلماء عليها. وبهذا الإجراء ضمن الباب العالي كل ظروف النجاح للمشروع إذ إن الفقهاء، والعلماء، والسلطان أيّدوا هذا الاكتشاف ووافقوا على استخدامه وتفاودوا في الوقت نفسه كل معارضة من طرف المحافظين، مثلما حدث ذلك في سنة 997هـ/1588م عند محاولة بيع كتب أوروبية مطبوعة بالعربية.<sup>(72)</sup> (شكل 15)

لقد اتجهت المطبعة نحو طبع كتب غير متعلقة بالفقه والشريعة، بناء على فتوى شيخ الإسلام وقرار السلطان أحمد الثالث؛ فاختارت بضعة مجالات معرفية للتركيز عليها، فكان أن نشرت كتباً في الجغرافيا، واللغة، وفنون الحرب، والتاريخ وهذا المجال الأخير احتل النصيب الأكبر في منشوراتها، حيث بلغ قدر ما نشر عنه ثلاثة عشر كتاباً من جملة عشرين. والغرض من هذا الاختيار هو إبراز أمجاد سلاطين بني عثمان وتدعيم شرعيتهم التاريخية، بالإضافة إلى أن القائمين على إدارة المطبعة كانوا يروجون بالأساس بعض الأفكار الإصلاحية، منها الدعوة إلى التفكير في أسباب الهزائم وانقراض الدول السابقة، فكانت المطبعة بمثابة منبر لدعاة الإصلاح للتعريف بأرائهم الإصلاحية والدعوة للانفتاح على الغرب. لذلك فإن المطبعة مؤسسة أنشأها ورعاها رجال السياسة لخدمة الباب العالي سياسياً أكثر من خدمة الرعية ثقافياً وعلمياً.

لكن المطبعة لقيت في أولى سنين عملها بعض التخبط وعدم الاستقرار، ذلك أن المسلمين لم يهتموا بما تصدره المطبعة من كتب ثقافية، أو تاريخية، ذلك أنه كما نعلم كان محظوراً على المطبعة إصدار أي كتب خاصة بالشرع أو الفقه الإسلامي؛ فالمسلمون بقوا متعلقين بالكتابة بخط اليد، ولم يكن من السهل تغيير عاداتهم القرائية في وقت قصير من طرف مطبعة واحدة مهما بلغ نشاطها. بل إن هذه المطبعة الوحيدة بقيت ظاهرة منعزلة وغريبة عن الإطار الثقافي والعلمي للإمبراطورية، ونظراً لضعف رواج الكتاب المطبوع، فإن المطبعة لم تستطع أن تشع على الحياة الثقافية في المشرق الإسلامي إلا قليلاً. لم يستمر هذا التخبط وعدم الاستقرار لمدة طويلة حيث بدأت المطبعة تدريجياً غرس تقاليد جديدة لدى المتعلمين المسلمين تتمثل في استخدام الكتاب المطبوع والتعامل مع إنتاج المطابع. وقد جاء ذلك نتيجة اقتناع وتفهم المستفيدين بأهمية فن الكتابة الجديد في التقدم العلمي والثقافي للمجتمع الإسلامي.

#### أسباب الوقوف في وجه إنشاء المطبعة

نفى الباحث «نيازي بركس» حصول اعتراض من العلماء على إنشاء المطبعة، مستدلاً على ذلك بعدم وجود أي قيد أو وثيقة في هذا الشأن. كما رد على مقولة كاتب غربي

يعزو أخير دخول المطبعة في الدولة العثمانية إلى العلماء الذين كانوا يرون في ذلك خطراً على الأمن العام وعلى المعاملات الدينية على النحو الآتي: «ليس هناك من دليل في اعتراض العلماء للفن الجديد؛ بل إن شيخ الإسلام قد أصدر الفتوى فوراً، وكتب اثنا عشر شخصاً من العلماء تقاريز على الكتاب، ولم يذكروا في تلك التقاريز شيئاً حول



(شكل 15) الطلب الذي تقدم به إبراهيم متفرقة لتأسيس المطبعة.

معارضة الشريعة للمطبعة. كما أن تعيين أربعة مصححين ثلاثة منهم قضاة والآخر شيخ طريقة، يدل على عدم معارضة العلماء لذلك».

ثم قام نيازي بركس بتعديد أسباب الوقوف ورفض إنشاء المطبعة في بادئ الأمر: (73)

- 1- كان لابد من وجود تقدم تقني في بعض الجوانب للبدء بالطباعة وتسيير أمرها،
- 2- كان ينبغي إنتاج كمية كافية من الورق، لتسيير أمور الطباعة.
- 3- كان ينبغي وجوده عدد كافٍ من القراء لتغذية فن الطباعة، إذا نظرنا إلى الأوضاع في تلك الفترة.

قام الدكتور سهيل صابان بتفنيد تلك الأسباب، حيث ذكر أن اعتراض العلماء على إنشاء المطبعة العربية كان وادًا، في حين أن القول بعدم وجود كمية كافية من الورق لتسيير أمور الطباعة يعتبر أمرًا غير مقبول، لأن الظروف الاقتصادية للدولة العثمانية في ذلك الوقت (القرنين السادس والسابع عشر) كانت كفيلة بتوفير الورق، وإنتاج الكمية الكافية منه، يضاف إلى ذلك أن النفوس بعدما تهيأت لقبول فن الطباعة بمدة طويلة، لم ير العلماء بأسًا من طبع الكتب الشرعية، استنادًا إلى القضية الفقهية «الأمر بمقاصدها»، حيث قاسوا عملية الطبع على عملية التجليد. (74)

### رسالة «وسيلة الطباعة»

ذكر إبراهيم متفرقة في رسالته المعروفة بوسيلة الطباعة - المنشورة في ديباجة المجلد الأول من «قاموس وان قولي» (وهي أربع صفحات ونصف الصفحة، كل صفحة تتكون من 34 سطرًا) - فوائد المطبعة وأهميتها في حياة الشعوب، وأوضح كيف أهمل اليهود والنصارى نشر كتبهم الدينية، ويبيّن أن المسلمين على العكس منهم اعتنوا بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وضبطه، ثم تحدث عن ضياع كتب كثيرة في أيام «جنكيز خان» و«هولاكو»، وفي أثناء وقوع الأندلس في يد الأوربيين، وعدم بقاء من يقوم من الخطاطين أصحاب الهمم العالية بنسخ الكتب الكبيرة، وأن ما كتبه الخطاطون الآخرون قد امتلأ

بالأخطاء، مما يؤدي إلى ضياع العلوم والمعارف، وأن كثيراً من نسخ الكتب النادرة ضاعت في الحرائق التي تنشب بين حين وآخر في (إستانبول)، وأن طلبة العلوم عاجزون عن توفير الكتب المقررة عليهم، كما أن تلك الكتب المخطوطة باهظة الثمن... الخ.<sup>(75)</sup> (شكل 16) وقد أراد إبراهيم متفرقة أن يشرع في التعريف بالطباعة، فأجمل فوائدها على النحو التالي:<sup>(76)</sup>

- 1- إن إتاحة بعض الكتب المهمة للخواص والعوام بكثرة أمر مفيد.
- 2- إن طبع آثار المؤلفين يؤدي إلى إحيائها ونشرها بين المسلمين.
- 3- بما أن خطوط الكتب (المطبوعة) مقروءة، وواضحة، وجميلة، فإن ذلك سوف يسهل الأمر على المعلمين والمتعلمين. كما أن حبر الكتب المطبوعة ثابت لا يتأثر بالماء مثل الكتب المخطوطة.
- 4- الطباعة عمل مريح، وتكلفة مجلد واحد (من الكتاب المخطوط) تساوي آلاف الكتب (المطبوعة)، وبذلك تنخفض أسعار الكتب ويستفيد منها الجميع.
- 5- إمكانية البحث عن الموضوع المطلوب في تلك الكتب بسهولة، حيث تزود بفهرس مجمل في بداية الكتاب وفهارس مفصلة في نهايته.
- 6- تخفيض أسعار الكتب يكون سبباً لقيام الشعب في المدن والقرى النائية بالاستفادة من الكتاب (والإقبال عليه).
- 7- إمكانية تأسيس مكتبات كبيرة في المدن (وبالتالي) يتزايد عدد طلاب العلم.
- 8- وكما أن الدولة العثمانية رفعت من شأن الأمة الإسلامية بالجهاد، فإنها سوف تخدمها حين تقوم بنشر الكتاب.
- 9- يعرف الأوروبيون قيمة الكتب العربية، والفارسية، والتركية، فيقومون بطبعتها. إلا أن الكتب التي يطبعونها مليئة بالأخطاء، ويستعملون الخط المغربي، ويقومون بتقليده،

وذلك الخط خالٍ من أي أثر للزينة والحسن. وهو مبني على الخطأ. ويحتمل أنهم في المستقبل إذا وجدوا المؤهل لذلك سوف يطبعون المؤلفات الشرقية بشكل واضح وصحيح، ويرسلونها إلى البلاد الإسلامية. ويجلبون بذلك الأموال من المسلمين. فكما أن المسلمين فاقوا الكفار في كل النواحي فينبغي أن يتقدموا عليهم في هذه الناحية أيضاً.

10- ومع أن موضوع هذه الصنعة قد نوقش بين الوزراء (فيما سبق) إلا أن صعوبة هذا العمل لم تتح الفرصة لتوافر المؤهلين له. ولذلك لم توجد إمكانية لتحقيقه. أما الآن فإن الإمكانيات لوجود المطبعة متوافرة. وطبع الكتب التي يحتاج إليها العالم الإسلامي سوف يزيد من شأن وشرف الدولة.

### فرمان السلطان أحمد الثالث

ذكر السلطان أحمد الثالث في فرمان الذي أصدره سنة 1139هـ/1726م بناءً على طلب «سعيد أفندي» و«إبراهيم متفرقة»، أنه أجاز لهما ممارسة مهنة الطباعة وإنشاء المطبعة، لكونها تؤدي إلى نشر العلوم والمعارف بين أفراد الأمة الإسلامية وإصدار كتب علماء الدين المبين وحفظها وصيانتها، حيث تعرض كثير من الكتب النادرة إلى التلف والإحراق والضياع أيام «جنكيز خان» و«هولاكو» وهجوم الإفرنج على الأندلس والمعارك التي جرت بين حين وآخر، كل ذلك يجعل إنشاء المطبعة واجباً ولا بأس بالشروع أول الأمر في طبع قاموس «وان قولي» نظراً لرغبة طلبة العلم فيه، وكونه كتاباً ضخماً، لا يستطيع المستنسخون القيام بنسخه. وأشار في فرمان أيضاً إلى السماح بطبع الكتب جميعاً ما عدا «كتب الفقه، والتفسير، والحديث الشريف، وكتب علم الكلام».<sup>(77)</sup> (شكلا 17، 18).

### مطبوعات إبراهيم متفرقة

تم طبع سبعة عشر كتاباً في زمن إبراهيم متفرقة (خلال أربع عشرة سنة)، مجموعها اثنان وعشرون مجلداً، وحسب رأي بعض الباحثين ثلاثة وعشرون مجلداً، وذلك لأن

تاريخ راشد قد وجد في بعض المكتبات ثلاثة مجلدات وكانت موضوعات تلك الكتب على النحو التالي:

**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**

الرسالة لمة أبو سبيلة الطباعة

وقد أتاه اقتضاه شئت ربي ومقتضاهي إرادت من بني برات وجماعتي وبارقوم وإبراهيمي بربر دابة كمياب  
 ويرخي إليه متنز وسرأزان قلعه تعلق بلسه اول مراد كتم عدم دن خروجه واول خبيرك مصد وجوده  
 ظهور ينوبت وبادي اولان اسماني كمال عنابندن خلق ابدوب قولريك منافع في جيون حاضر مهيا فبذنه  
 هادت سماجى جارى اولمشدر: وكلاي للسان قذيل البصاعه عبد عاجر بنده ناجين المحتاج الى رحمتك بن العزير  
 بعض السمه واعانه في اطله وقوف محصيل اتمك حسنيه سر كذشت بنى اومه واحوال ايم سالدك يمكنت  
 عاجر انم تره مسي محصيل اطلاع رانغ وسماي وكنت توارخ دول سالفه واجاب ادان مختلفه في بر مقدار  
 اسنقر او تبعا شتمال بزمه خاطر فاتر مومقدار علاج وفكر واندیشه بر تقصيه مسوله ساج ولد يكذدول  
 مختلفه سالفه ولا حقه ده موجود سماج رشدون كاوار باب عقل ودهاسانك داند نظري مد اتمك حفظ  
 واشتهار بنه وبولند قارى دولت وسلطنتك غلبه نموس وتعظيم شانته ونظام مهام سماجى وبادي  
 الات واسماند از كنه تشنه ودوام وقيام اتماق واجتماعلر بنه وسيله اولان منبراج قريه مسي وسلوكيه  
 ما بر محدود و انار جمله ابداع واختراع ومحصيلته دقيقه فوت اتمك جوازه وبمشدر در فلاجر مستخرين دني  
 متقدمينك تر سالك اولوب في زمانه موجود دول وملل مختلفه عالم كماله قى اين نظام مصاحبات  
 وسيله نظام دول دولت و رابطه حفظ وقايت ملك ومات اولان اسماني تبدل وتعير دن حات وصينات  
 ومنتج اولد قارى دين واپين منسوخ وعاطل و باطل دغى اولور سه حق وابق اولور ظن واعتقاد ايله واپين  
 وقواعد ملل ودولى مرواعوام وكروا يام ايله سهو ونسيان خنلر اتندن امين وتبدل وتعير وقناظر راني  
 مملكه سندن سالم وابق ملاحظه سيله كاه سنك وسجر وكاه نحاس وحد بدن معمول محققدر له قلوب  
 نت وقرب ايله كاد كرندن ماعدانشر وشيو عيله علم ومعرفته مند اولوق ايجون نكتير كتبه نظر بن اهور ابداع  
 واختراع البشر در بو خصوصي حد بصر وامعان نظر ايله فكر ومطالعه اولنسه خياردن جميع امه وفضل  
 مجرد دول عالم اولان دين ودولت اسلام وسيله قيام رد وامر شان دوات وموجب نظام مهام امت وسير  
 تفهيم ملك ومملت و باعث غلبه شوكت سلطنت اولان قواعد وقرانين ضبط وربط وسباب انظام مور  
 امت تبدل وتعير دن حراست و بواجتماع امت تفرقه واختلالدن وقايت وعلوم وفتون مرغوسه  
 ونسيانندن الى زيور القيام حفظ وصينات وابق قصد وعزيميله قف زمردين ايله لعل وياقوت وذهب  
 وسهين ومصنوع لوحه لدمه ياز بلوب وقاز بلوب نبت وقيد اولنقه من كل الوجوه سايبان ونكتير كتبه لر علوم  
 شريفه وفتون مرغوسه نك عالمه دشر شه همت وبوطر بن ايله عامه اهل ايمان امداد واعانت سايبته ابدى  
 بالبراهه نمايان ومستغن عن البيان اولد قدام شرف مسامحي واحسن صنابع اولان بسمه كتب حروف وصنعتي  
 اشبه مقصوده موصل بر طرييق حاده وبر واسطه مستقبليه ابد وكه بناء بولمردى شانك متمغن اولدوغى  
 منافع لاخصى دن منظور خاص وعام اولان ايجون بر بنه لر ايمه امر و اشارت اولنسه لايقدر بسمه كتب او زرينه  
 ترتيب ايدن منافع وقول ايدانك در ذوارخ ايم سالفه ايله انشا اولان اولى الاصبان خفي وپوشيده دكدن ركه  
 بنى اسرا بيلقوى كنه منزله دن امتثاليله امور اولد قارى تورات شريفي حفظ واز بر ايدنك الزام ايتوب  
 حدظ واتقاني عهدله ذمتار بنه لايمك ضبطه تفصيره وهما ل ايدنكارندن غيبرك كرتورات شريفه وكرك  
 ساكر كنه معاملات استنساخ ايله ايدى ناسه وصوله وبوطر بنى ايله اطراف وكفايه نشر وشيو عه هنام  
 ايمه بوجرديت مقدسه حفظ ايتار بله فتنه تحت النصر ظهور ايلدكاه اول نظام بر كشته تحت بنى اسرا ايله  
 استلا وكاه بلمدت مقدسه بجز سدرون تالوت مسكنه ده بنجم وحفوظ كنى وتورات شريفي بار ايله

(شكل 16) رسالة وسيلة الطباعة.

• أحد عشر كتاباً في التاريخ.

• ثلاثة كتب في اللغة.

• ثلاثة كتب في علوم نافعة، مثل الجغرافيا، والمغناطيس، والجيش.

وكان عدد نسخ تلك الكتب 13200 نسخة، فقد طبع منها 1200 نسخة وبعض آخر 1000 نسخة، وبعض ثالث 500 نسخة؛ وإذا أردنا توزيعها على السنوات يظهر أنه طبع بشكل متوسط 1.2 كتاب في السنة الواحدة، أي 850 نسخة.

وفيما يلي مجموعة الكتب التي أصدرها متفرقة في مطبعته، حيث أصبحت تلك الكتب بواكير الطباعة التركية بالحرف العربي:

- 1- ترجمة الصحاح للجوهري: قاموس «وان قولي»<sup>(78)</sup> (مجلدان من القطع الكبير). (أشكال 19، 20، 21)
- 2- تحفة الكبار في أسفار البحار لكاتب جلبي.
- 3- ترجمة تاريخ سياح (أفغانستان) لطابع الكتاب (إبراهيم متفرقة).
- 4- تاريخ الهند الغربي المسمى حديث نو.
- 5- تاريخ تيمور كوركان لنظمي زاده البغدادي.
- 6- تاريخ مصر القديم والجديد لسهيلى (مجلدان).
- 7- كلشن خلفا لنظمي زاده البغدادي.
- 8- جرامر تركي لطابع الكتاب (إبراهيم متفرقة).
- 9- أصول الحكم لنظام الأمم لطابع الكتاب.
- 10- فيوضات مغناطيسية.
- 11- جهانما لكاتب جلبي.

- 12- تقويم التواريخ لكاتب جلبي .
- 13- تاريخ نعيما (مجلدان من القطع الكبير).
- 14- تاريخ راشد (مجلدان من القطع الكبير).
- 15- تاريخ جلبي زاده عاصم أفندي .
- 16- أحوال غزوات درديار بوسنة .
- 17- لسان العجم المسمى فرهنك شعوري (مجلدان من القطع الكبير).

#### خصائص مطبوعات متفرقة<sup>(79)</sup>

كانت تلك الكتب التي صدرت في مطبعة متفرقة خلال مدة أربعة عشر عاماً (1141-1155هـ/1729-1742م)؛ ومع أن متفرقة هو منشئ المطبعة، إلا أنه لم يكتف بإنشاء المطبعة فحسب، بل عايشها أيضاً. فقد اختار المؤلفات التي طبعها، وترجم بعضها منها، وألحق مقدمات، وخواتم، وملاحق وفهارس لبعضها، كما عمل خرائط بيده ونحت حروفاً، واشتغل بالأمر الفنية للمطبعة بنفسه، وتظهر خصائص كتب متفرقة في النقاط الآتية:

- خلوها من الأخطاء الإملائية والمطبعية بالمقارنة بالكتب التي طبعت بعد وفاته. فقد ظهرت الكتب التي طبعت بعد وفاته بيد خلفه القاضي «إبراهيم أفندي». والكتب التي طبعت في المطبعة نفسها أيضاً بعد عام 1198هـ تحتوي على أخطاء إملائية ومطبعية. ولهذا فإن السمة البارزة لمطبوعات متفرقة إضافة إلى كونها بواكير الطباعة العربية في الدولة العثمانية، هي خلوها من الأخطاء المطبعية.
- كتابة المقدمات أو الملاحق والتذييلات لها، أو بعمل الفهارس التفصيلية، مما يجعله في مصاف المؤلفين البارزين في عصره، ولعل قراءة المقدمة التي كتبها لـ «كلشن خلفا» وتقديمه بعد ذلك نبذة عن كل كتاب خير دليل على أسلوب متفرقة في الكتابة ونموذج حي على ذلك.

یا معنی اول کتابک متاثر بن تحصیل ابدون و بسمه بزرگ بوجه غل کتابتہ مباشرتہ عا رخصت  
 و از میدردیواستقتا اولند فقه بسمه صنعتتہ مهارتی اولان کسجه به کتیک حروف و کلتی بزقالبه صحا  
 نقش ادوب اوزافه بجه و زمان قبله بلا مشقتہ تنع کتیر حاصله اولوب کتیر کتیر خصیم بواله تکلمه  
 باعث اولور و وجهه فایه تطبیقہ فی مشتمل اولنقله اول کسجه مساعده اولنور بفرح عالم کسجه ضروری نقش  
 اولان حق کتای صحیح ایچون تعیین بیوریلور ایسه غایت محضتہ اولان اموردن اولور دیواقتا ابدون کندن  
 ماعد اطهر رسامه قلم حکمت نومی ابله هله ماله بل دروهو فی بحر مستغرق فی مسکه مفرد و فی زخاری  
 التیات و بحر و لکنه عدب فانت هض و نهر فخص منہ عبون لایخری بان بکون مسقفا لانا و ابراعه القول  
 و موقعا لانا و غیر فی الغول فایه در مشتمله حیرت بین باین و احسن الیابن و هل جراه الاحسان للاحسان  
 کلمات دری اللہ العالیه تعریفی تنکلمه مولانا می شان الیه کتای شریفه ای و بجه مساعده هابو یوزارانی  
 قلوب و صورتی نقش اوله حق لغت و منطق و حکمت و هیئت و بوزنک امتثال علوم آلیهده تألیف  
 اولن کتایلردن صورتی نقش اوله حق کتای صحیح ایچون علماء محقق و فضلاء مدققیدن  
 علوم شریفه و فتون آلیهده مهارت کامله اری اولان فنی قضاء المسلمین سائفا استنبول قاضی  
 مولانا اصن و سائفا سلاطینک قاضی مولانا صاحب سائفا غلطه قاضی مولانا احمد زیدت  
 فضائله و مشایخ کرامدن قدوه العااه المحققین قاسم یاشامو لولجانه سی شیخی مولانا موسی  
 زید عالمه مأموره تعیین اولنشاردر اییدی ذکر اولن کتای کتبت لغت و منطق و حکمت و هیئت و بوزنک  
 امتثال علوم آلیهده تألیف اولن کتایلردن صورتی نقش اوله حق کتای مولانا موسی ایجه صحیح  
 ایدردن کسجه و جده مشروح و در صفت مرقومه فی معیت ابله غل و ابر و یوز و جملت کتبت مذکورنک  
 تکتیر بسمه جانی فی الیلور و لکن صنعت مرقومه ابله حصوله کتیلان کتبت صحیح اولن اوزون  
 ریاده اتمام و خط و خطای و نقدن رعایت انقالبه مرسوبله بله مزلتات  
 شریفه اعتمادی قلم سحر جرائق اواسط ذی القعدة سنه تسع  
 و ثلثین و مائه و الف مقام المرحومه  
 قسطظنیه

صورت فتوی شریفه

بسمه صنعتتہ مهارتتہ عا با بن زید لغت و منطق و حکمت و هیئت و بوزنک امتثال علوم آلیهده تألیف  
 اولن کتایلر حروف و کلتیک صورتی بی بزقالبه کتیلر ادوب اولور بسمه ابله اول کتابک  
 متاثر بن تحصیل ابدون و بسمه بزرگ بوجه غل کتبتتہ مباشرتہ عا رخصت و از میدردیوان  
 الجواب  
 بسمه صنعتتہ مهارتی اولان کسجه به کتیک حروف و کلتی بزقالبه صحیح ایچون تعیین بیوریلور ایسه غایت  
 قلیله بلا مشقتہ تنع کتیر حاصله اولوب کتیر کتیر خصیم بواله تکلمه باعث اولور و وجهه فایه تطبیقہ  
 فی مشتمل اولنقله اول کسجه مساعده اولنور بفرح عالم کسجه ضروری نقش اولان حق کتای صحیح ایچون تعیین  
 بیوریلور ایسه غایت محضتہ اولان اموردن اولور دیواقتا ابدون کندن ماعد اطهر رسامه قلم حکمت نومی  
 ابله هله ماله بل دروهو فی بحر مستغرق فی مسکه مفرد و فی زخاری التیات و بحر و لکنه عدب فانت هض  
 و نهر فخص منہ عبون لایخری بان بکون مسقفا لانا و ابراعه القول و موقعا لانا و غیر فی الغول فایه در  
 مشتمله حیرت بین باین و احسن الیابن و هل جراه الاحسان للاحسان کلمات دری اللہ العالیه تعریفی  
 تنکلمه مولانا می شان الیه کتای شریفه ای و بجه مساعده هابو یوزارانی قلوب و صورتی نقش اوله  
 حق لغت و منطق و حکمت و هیئت و بوزنک امتثال علوم آلیهده تألیف اولن کتایلردن صورتی نقش اوله  
 حق کتای صحیح ایچون علماء محقق و فضلاء مدققیدن علوم شریفه و فتون آلیهده مهارت کامله اری  
 اولان فنی قضاء المسلمین سائفا استنبول قاضی مولانا اصن و سائفا سلاطینک قاضی مولانا احمد  
 زیدت فضائله و مشایخ کرامدن قدوه العااه المحققین قاسم یاشامو لولجانه سی شیخی مولانا موسی  
 زید عالمه مأموره تعیین اولنشاردر اییدی ذکر اولن کتای کتبت لغت و منطق و حکمت و هیئت و بوزنک  
 امتثال علوم آلیهده تألیف اولن کتایلردن صورتی نقش اوله حق کتای مولانا موسی ایجه صحیح ایدردن  
 کسجه و جده مشروح و در صفت مرقومه فی معیت ابله غل و ابر و یوز و جملت کتبت مذکورنک تکتیر بسمه  
 جانی فی الیلور و لکن صنعت مرقومه ابله حصوله کتیلان کتبت صحیح اولن اوزون ریاده اتمام و خط و  
 خطای و نقدن رعایت انقالبه مرسوبله بله مزلتات شریفه اعتمادی قلم سحر جرائق اواسط ذی القعدة سنه  
 تسع و ثلثین و مائه و الف مقام المرحومه قسطظنیه

(شکل 18) الصفحة الأولى من خط همایون.

و حینیر کتایلر اولونه

صورت خط همایون  
صورت امرش به

قد و لام اجد والا عیان مکتوبی صدر انظمی علف استند سعید و در کاه معلوم متفرقه اردن انرا همیزید  
 بجد و از قلم رفیع همایون واصل او ایچن معلوم اولاک جون روابطه ذوقه ایم قرآن دین و دولت و ضوابط  
 قوام نظام ملک و دولت و ضبط و ربطه آوار و ج و اخبار و حفظ و حرارت معارف و آثار و نبت و بحر و کتب و صحاف  
 و قیود و تحریر و دوا و بین لیلانله بنسرا و اشاعت انواع علوم و طارث ارفونن تکتیر کتبت ابله مقدر ابدونکی  
 مدله و مقرا اوله بله طواعی غنم دین بحوری و ظهور نیا شریح صحت ملت احدی صلی الله تعالی علیه و سائینور  
 عالیه دین مبین و فضلاء محققین کثر هم الله تعالی الیوم الذین ضبط و حیات ایت قرآنیه و حفظ و صیانت  
 احادیث نبویه و مسأله معارف بقیامه ایچون ندون و صحیفا و تفسیر کتبت علوم و معارف الیلور و کتبتک لغات  
 عربیه و فارسیه و معارف ابله و حکمیة و سائر فنون جزئیة و قواعد کلیه ضبط و قیاد و تعلیم و استفادة سی دخی  
 کتبت و تحریر و اولد و بین و تفسیر ابله حصول ابدون اوله نبل اچوردن بویه و لخر و به و احرار رسامه ادبیه ایچون  
 کتبت ایچون کتبت ابله و ندون بین صحیفه و اوف جزئیة دخی خالی اولیوب لکن مروایم و اختلافات دورا عارم  
 ابله حکمت و فتنه انکار و هلاکوری قیوم و حلافت و ملک اندلسه بخره افریح استیلا سنه و سائر اوقیع اولان  
 حروب و قتال و حربین انانزه اکثر مصنفات عرضه اصباح و تلف اوله لعل الیوم مالک کتیر اولان نسخ لازمه  
 و جهری و اسالی العرب و یونان قوی و کتبت اولون و نامع علوم آلیهده جلد و صحیح کتیر اولان نسخ لازمه  
 زاد و زوره کتبت و مستنسخینک دخی قصور هست و اوزار کتبت ایشی بازمه غنم انبویب و یازد قاری  
 نسخ دخی ضبط و خطادن خالی اوله لکنه کتبت و صفات نسخ طلبیه علوم و روضه معارف و فنونک  
 عسرت و مشقتلر بنه مات وادی اولوب و اهل صناعتیدن بسمه صنعتی وجوده تا هر سه کسجه صنعتی صرف  
 و روی بجه فیکتیک بین طبعی بی رونق کتایتندن عبارت و فنی بسمه حصوله کتیلان کتبتک عبارت عیان  
 و بوجله کتبت ازلان حق و حقیقه بسمه فتنه بجه بیک جلد کتبت بجه حصوله کتبتک عیان اولوب قلیل المنسقه  
 و کتیر المنسقه صنعت مرقومه اولدین معنوی حاوی رساله ابله بجه تألیف و اشاعت و مساعده کتیر بسمه  
 و حصول ابله بسمه مرقومه مزرک و انکار اوله لاروم و معارف اشتراک کتیر انکار ابله ایم سعادت  
 اقرارنامه صنعت مرقومه بیک وای خدای منصفه ظهورده جلوه کر اولسبله عا اهل اسلامک فی یوم القیام  
 استجلال و درات خیرلر بنه باعث ایچون فقه و تفسیر و حدیث شریف و کلام کتایلردن ماعد لغات  
 و تراویح و طب و فنون حکمیة و هیئت و کاتایع جغرافیا و مالک و مسالک کتایلری باصلن ایسه اذن و رخصت  
 یاد شامی اناس ابله رسالمدک و نایع اعالیا انصهر بن افضل الفضلاء المنورین بحر رخا علوم شی  
 و بنوع انهار مسأله و فتوی و لایس لباس و تقوی و تفریح الاسلام و موقی لایم مولا عید الله ادم الله  
 تعالی قضا ابله رسال و بسمه صنعتتہ مهارتتہ عا با بن زید لغت و منطق و حکمت و هیئت و بوزنک  
 امتثال علوم آلیهده تألیف اولن کتایلر حروف و کلتیک صورتی بی بزقالبه کتیلر ادوب اولور بسمه  
 جانی فی الیلور و لکن صنعت مرقومه ابله حصوله کتیلان کتبت صحیح اولن اوزون ریاده اتمام و خط و  
 خطای و نقدن رعایت انقالبه مرسوبله بله مزلتات شریفه اعتمادی قلم سحر جرائق اواسط ذی القعدة سنه  
 تسع و ثلثین و مائه و الف مقام المرحومه قسطظنیه

(شکل 17) فرمان السلطان أحمد الثالث  
 و فتوی شیخ الإسلام بالموافقة على تأسيس  
 المطبعة.

- استخدام الحروف نفسها في جميع الكتب، ما عدا الكتاب الأخير وهو (فرهنك شعوري)، فيظهر فرق طفيف فيه.
- الاهتمام بتجليد تلك الكتب، فمع مرور أكثر من قرنين ونصف القرن على تلك الكتب فإن تجليدها مازال فاخراً، محافظاً على الأوراق التي بداخلها.
- الورق المستخدم فيها قوي وهو مصقول، والظاهر أنه ورق أوروبي.
- وضوح الخط المستخدم في هذه المجموعة وسهولة الاستفادة منها حتى أيامنا هذه.
- وضع عنوان لكل كتاب، وإن لم يكن ذلك على الغطاء الخارجي للكتاب، أو أول صفحة منه، حيث كان متفرقة يخصص الصفحات الأولى من كل كتاب (بشكل عام) لكتابة مقدمة له، أو ذكر الكتب التي طبعها.
- ذكر سنة طبع الكتاب ومكانه في نهاية كل كتاب، مثل الكتب المخطوطة.
- اتباع نظام ترقيم أوراق الكتاب، مثل المخطوطات، لا مثل الكتب الحديثة (الصفحات).
- كان حجم بعض الكتب المطبوعة كبيراً وبعضها الأخرى صغيراً، ولم يتبع متفرقة في ذلك منهجا موحدًا.

#### وفاة إبراهيم متفرقة<sup>(80)</sup>

كان مرض إبراهيم متفرقة عام 1156هـ/1743م سبباً لتوقف نشاط المطبعة. فلم تنشر في هذه السنة ولا التي تليها أي كتاب، وقد توفي متفرقة عام 1158هـ/1745م عن عمر يناهز السبعين عاماً. وتذكر بعض المصادر أن وفاته كانت عام 1157هـ/1744م وذلك بالاستناد إلى البيت الذي يقول: «بصدي إبراهيم أفندي صحن فردوسه قدم» فهي تعني حسب حساب الجمل 1160هـ، ونظراً لأن شاهد القبر نصب على قبره بعد ثلاث سنوات من وفاته، فالتاريخ الصحيح لوفاته - حسب ذلك - هو عام 1157هـ. وكان عمره آنذاك ستة وسبعين عاماً أو سبعة وسبعين. وعلى هذا يكون التاريخ الصحيح لميلاده هو عام 1670 أو 1671م.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ

حدیثی حد و شای لایعد اول منشی دواوین اکوان و مبدع صنایع امکان جل شانہ و عذوالہ حضرت لیلینک درکاه احدیت و بارکاه ممد بنده حقیق و مثالیاندرکه صحیفه جلد چرخ برین کتاب بسطور صنع نامہ و ری شرحہ طقوز ورقلی رد فتر و طباق سبع ارضین کتب قیمه آثار قدر تندہ رفیس هفت برک اکثر اولوب ریات بیفات ملکوت و ترجمه اسرار جہونی اقلام انتخاب اہلہ بحایف اوراق والوای از ہار اوزن ثبت و بحر یرو اولمشدر و جواهر درود متعاقب الورد اول و آتمرموز نسخہ وجود و شارح تون اسرار شہود حبیب خدا رسول کبریا اعنی بہ حضرت ابی القاسم محمد المصطفی علیہ افضل التالیما حضرت لیلینک تبار و ضہہ پاک و حجرہ تابناکاری اولسونکہ کاتب کریم وحی و رسالت خاتم نبونلر بلہ مخموم و اسالہ الغیب سر و وحدت نطق مشرفلر بلہ معلوم احباب فہومدر صلوات اللہ تعالی علیہ و علی آلہ الاطہار و صحیحہ الاختیار ماتہا قب اللیل والنار اما بعد بوکتاب مشکین نقاب و خطاب مستطابک محرم و توسط طیر نواع و بادی اولدرکہ صفحہ طراز ان جرابد لخبار و واقع نویسان بحایف آثار تباشیر صبح طہور و فایض النور شعار شرح مجدی علیہ اکمل التالیادن الی یومنا ہذا منتظم سلاک سنین و شہور اولان ایام محبت آثار و ازما سعادت شعاری سرفہا اللہ تعالی بالنفحات القدسیہ طور ابعاد بطور عد و شمار و فصول ولوب کبی طبعہ طبقہ اعتبارا بدوب ہر کل صد برک ماہ کاملہ فی بقرن صحیح اولیق وزن بیرایہ دست استہار اینشلردر وقتکہ صفحات ادا و بحایف روزگار وزن کلک حکمت و عامہ قدرت اہلہ بسطور عبرت مسطور مات سنین رسم و تسطیر اولنہرق نوبت محرم قلم سطر دلکش اقرن نانی عشرہ رسیدہ اولوب بوکلنقش دلپذیر پدایہ جریہ طہور اولدی جناب نسق ساز کارکاه جوان و شیرازہ بندہ کتب اسمان جل شانہ و عذوالہ حضرت لیلینک اقتضای حکمت علیہ و سبق عنایت ازلیہ اہلہ مجد بد قواعد دین مبین و احیای سنن فخر المرسلین ایچون علی وفق العادہ اسباب، خیر و صلاحی امادہ ابدوب بوسجہ صد دانه ترن سعیدک امامہ عنوان و فاتحہ برہ غر اسن برواسطہ العقد سلاک اللال عز و اقبال و شمس القلادہ و شاخ الصدر جاہ و جلال شہریار جلالت مدار و یادشاه بلند اقتدارک مطلع خلافتلر بلہ مشرف قلبق مراد ابلدی طلوع بدرقہ مہر توفیق و ظهور نجم ہدایت رفیق اہلہ اولاختر قرن حادی عشرہ اول شہنشاہ فلک دستکاک کوی سعید وجود مسعودی اوج شہود دہ جلوہ کر و او اہل قرن ثانی عشرہ ذات ہمایونلری پیرایہ بخش سر رواقسرا لوب اسم سامیلر بلہ روی دینار و درم پرزب و فر و جواهر قیمہ القاب ہمایونلر بلہ رؤس منار دہ السنہ خطبا درج الدرر اولدی یعنی چون نوبت خلافت ووزافزون عثمانی و عطیہ کبرای وراثت تحت سایمانی اول خلاصہ دودمان خلافت و تقاویہ خاندان سلطنت صاحبقران دوروزمان طلسم دجہ امن و امان مظهر تائیدات حی و قیوم مولی ملوک العرب و العجم و الروم الاوہو السلطان الاعظم ابن السلطان المعظم ابو الفتح و المغازی السلطان الغازی احمدخان ابدہ اللہ الملک المنان حضرت نلرینک شرفند باب دولت لری اولیق پیسر و مقدر اولدی ابتدای جلوبس ہمایون مینت ما نوسلرندن برو بیرایہ کتابہ روزگار اولمغہ شایان بیجہ معالی امور و مصالح جہور جلوہ کر بجلائی لہور اولمشدرکہ عشرہ معشاری محاط نطق بیان و کنجایش پذیر حوصلہ امکان دکادر چون ادرا سنین

هجرت

(شکل 19) الصفحة الأولى من قاموس «وان قولي».

التي حركته كتورمك يقال انعطه صاحبه وانعاط مجامعته خريص او لمعه دخي ديرلر يقال انعطت الدابة اذا فحمت  
 حياها مرة وقبضته اخرى لتكظ فحتميله مجله معناسنه يقال تكظ الرجل من الباب الزايع الانكظ همزة مكسر بله  
 مجله ليدر مك قال انكظه غيره اي مجله عن حاجته التنيكظ على وزن التكرم كذلك مجله ليدر مك يقال انكظه  
 تنيكظا فصل الواو الوشيط واوك فحتميله ومثبلك كسر بله ومد بله شول ملايم بك بان سيدر كه بك كك او جنده  
 او لور كه كا كور بك دخي ديرلر وو شيطه اجني اولنه دخي ديرلر يقال بنو فلان وشيطه في قومهم اي هم حشوف فيهم  
 الوشط واوك فحتميله وشبلك سكونيه كك بان سن فاتق نقول وشطت العظم اشطه وشطت اذا كسرت منه قطعة  
 وو شطت لانه دليكيه براغاج بان سي صوقعه دخي ديرلر صابى او نيسون ديون نقول وشطت الفاس اذا جعلت  
 في حرتها قطعة خشب تصميغه بها وخرت حاء معجده بك فحتميله برنسنه بك دليكيه ديرلر الوعظ واوك فحتميله  
 سكونيه نصيحتك اي بك برنسنه بك اخرن اكد مرق العظه عينك كسر بله بمعناه نقول وعظته وعظا وعظه من الباب  
 الذي لا تعاط همريك وبانك كسر بله نصيحتك قبولك اي بك يقال وعظته فاتعظ اذا قبل الموعدة ويقال السعيد من  
 وعظ بغيره والشقي من تعظ به غيره الوكظ واوك فحتميله وكافك سكونيه اي بك دفع معناسنه يقال وكظه غيره وكظا اذا  
 دفعة الموكظ ابو عبيدك مصنفك واقع اولان روايى اوزن ميمك ضمي وكافك فحتميله برنسنه بمد امتك  
 قال الله تعالى الامامت عليه قائما قال مجاهد اي موكظا فصل الماء اليقظيانك فحتميله وفاقك ضمي ابله واليقظيانك  
 فحتميله وفاقك كسر بله اي كيسيك متببه او لب حذر اوزن اولان كسنه معناسنه در الاقظ همزة مكسر ومد بله  
 او ياندر مرق واقظا توزقو برمه دخي ديرلر نقول يقظت الغبار اذا اترته التيقظ فحتميله وفاقك ضمي وتشدد بله  
 او يانق الاستيقاظ همزة مكسر بله كذلك او يانق معناسنه يقال يقظته من نومه فتميقظ واستيقظ  
 اليقظان يانك فحتميله وفاقك سكونيه او يانق اولان كسنه اليقظة فحتميله اسيدر او يانق معناسنه يقظة كذلك  
 فحتميله برجلك اسيدر كه اول يقظة بن مره بن كعب در كجد

العلارى فهدر التيقظ على وزن التكرم

كذلك توزقو برمق نقول

يقظت الغبار اذا

اثرته

فقدم الجلد الاول ❖ بعون الملك الوهاب ❖ من كتاب الفاضل ❖ محمد بن مصطفى الوالى ❖ المترجم اصحاح

الجوهري ❖ للامام العالم ❖ الفاضل ❖ الكامل ❖ المحقق ❖ ابى نصر اسمعيل بن حماد الجوهري ❖

على ابدى الضعفاء ❖ المأمورين بعمل الطبع ❖ بدار الطباعة المعمورة ❖ فى هرة رجب المرجب ❖ سنه ❖

احدى واربعين ❖ ومايه والى ❖ فى البلده

الطيبة قسطنطينية ❖ صانها الله

عن الافات ❖

والبلية

❖

(شكل 20) الصفحة الأخيرة من المجلد الأول من قاموس «وان قولى».

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبِسْمِ تَعْيِينِ

الحمد لله رب العالمين والمخلوة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله ومحبيه اجمعين اما بعد اشبه عبد حقير كثير التقصير المحتاج الى اللطف الرباني محمد بن مصطفى الوائى غفر الله له ولوالديه واحسن اليهما واليه وقتناكه مدار تحصيل علوم دينيه واساس تكميل احكام شريعت نبويه معرفت اوضاع الفاظ عربيه اولوب بيان لغته احتياج تام مشاهد قلديسه وكتب لغتدن صحاح جوهرى فحول علما وجمهور فضلا قنتده مقبول ومسلم اولدوغى متفق عليه اولديسه تيم كيو ريشدر شعر ليس صحاح الجوهرى لاصحاح الجوهر بلح و بحر ذهب مواجه من درر ولكن عبارت لطيفه سى اسلوب بلغا و طرز عرب عربا اوزن اولغين نقلنه متصدي اولان بعض شراح اكر اخترى واكر صاحب صراح اخذوا اسنده حبط وخطادن خالى وبلديسه دبلد مكه بعنايه الله تعالى وحسن ترفيقه ذكر اولنان كتاب مستطابى لسان تركيه تبديل ايبوب ترجمه قيلم تاكه سهل التعاطى اولوب مبتدى ولنلرك سرعته اذعائنه باعث ومستعد اولنلره نم بلا تعي مورث اوله واسأل الله ان يعصم قديمى من الزيف والزال ويحفظ قلمى عن الخطاء والخلل انه ولى العصمة والسداد وعليه التوكل والاعتماد مقدمه الكابى طالب تحصيل علوم عربيه وراغب تكميل معانى لغويه شوبله معلوم اولاكه اشبو مة مده فصلين ووزره ترتيب وانشدر فصل اول افعال وافعاله متعلق اولن احوال بياننده در وفصل ثانى اسما وصفانك جمعى نه وجهه كلورانك بياننده در الفصل الاول فى بحث الافعال معلوم اولاكه كلام عربده قن بركلديك فعل ماضبسى مفتوح العين اولسه غالب بودر كه مضارعى مضموم العين اولور يا خود مكسور العين اولور را كر مضموم العين اولور سه خالى دكلدر كه يا متعدى يا خود لازم اوله متعدى اولور سه مصدرى غالب افعال وزنى اوزن كلور نصر بنصر نصر اكي واكر لازم اوزن كلور قطع بقطع قطع اكي لازمند فاعول وزنى اوزن كلور ضرب بضر بضر اكي واكر لازم اوزن كلور جلس بجلس جلس اكي واكر ايكسنده دخى مفتوح العين اولور سه متعدى سنده كذلك فعل وزنى اوزن كلور قطع بقطع قطع اكي لازمند فاعول وزنى اوزن كلور خضع يخضع خضوع اكي واكر كله نك ماضبسى مكسور العين اولور سه مضارعى مفتوح العين اولوب متعدى اولور سه مصدرى كبر وفعل وزنى اوزن كلور فم بفم فم اكي واكر لازم اولور سه فعل وزنى اوزن كلور ففتح ففتح ففتح طربا كى وكاه اولور كه سلم سلامة وصدى وصدى وزنى اوزن دخى كلور واكر ماضبسى مضموم ايسه مضارعى دخى مضموم العين اولوب مصدرى يا فاعاله وزنى اوزن كلور فتح فائه طرف طرفه كى يا خود فاعولة وزنى اوزن كلور ضم فائه سهل سهوله كى وماضى ومضارعك مكسور العين ايلسى نادر اولغين نك غالبه بناه كان مصدر بنه تعرض او ثيبوب محلى دوشد كچه اشارت وانشدر الفصل الثانى فى بحث الاسماء معلوم اوله كه صاحب

(شكل 21) صفحة المقدمة من قاموس «وان قولى».

هكذا استطاع إبراهيم متفرقة وسعيد شلبي تمهيد الطريق لمشروعات أخرى مماثلة بعد تغلبهم على المعوقات القانونية، بحصولهم على موافقة علماء الدين الإسلامي على استخدام فن الطباعة مع بعض الشروط، فظهرت مطابع إسلامية كثيرة بعد قرن من ذلك في العديد من الولايات العثمانية، حيث ساهمت هذه المطابع في ازدهار حركة نشر الكتب، والصحف، والمجلات وكلها ساعدت على نقل الآراء والعلوم الحديثة وفي إحياء كتب التراث وفي إدخال حركية جديدة في الحياة العلمية والأدبية في القرن 13 هـ/19م حتى عرف ذلك العصر بـ «عصر النهضة».

لكن ترجمة قاموس وان قولي إلى اللغة التركية عام 1729م تمثل أول كتاب أخرجته المطبعة، ويتألف هذا القاموس من مجلدين، وبيعت النسخة منه بخمسة وثلاثين قرشاً، وقد طبع في أول القاموس نص الفتوى، والفرمان العالي، والتقارير المحررة على التقرير الذي رفعه سعيد أفندي إلى أصحاب الشأن.

لم يكن دخول فن الطباعة إلى الشرق الأوسط، أو إلى تركيا مظهرًا من مظاهر التقليد الأعمى للحضارة الغربية، كما يحدث الآن، لكن الطباعة ساهمت في إحداث نهضة على المستوى الثقافي، والاجتماعي، والاقتصادي، بل والسياسي. وفي أثناء النهضة الثقافية ظهرت مجموعة من الأدباء خرجوا من عباءة عصر النسخ، وتقدموا صفوف الطبقة المثقفة الجديدة، ومن هؤلاء أحمد فارس الشدياق صاحب مطبعة الجوائب.

### مطبعة الجوائب

ولد فارس الشدياق، والذي عرف فيما بعد باسم أحمد فارس أفندي، في لبنان في العقد الأول من القرن التاسع عشر، وينتمي إلى عائلة مارونية مثقفة. نشأ في بيئة أدبية، حيث ورث عن أبيه مكتبة ضخمة حفلت بكتب من شتى الموضوعات.<sup>(81)</sup>

كان طبيعياً أن يسير فارس الشدياق على نفس منوال عائلته؛ فاشتغل منذ صباه بالنسخ حيث نسخ كتباً مسيحية باللغتين العربية والسريانية. حرص الشدياق منذ بداية

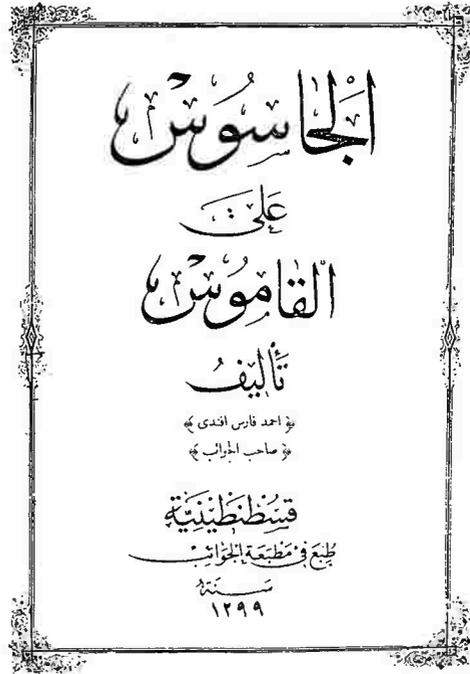
عمله في النسخ على إخراج أعماله بدرجة كبيرة من الإتقان، والدقة، والجمال. فعلى سبيل المثال، كان يختار الأدوات المناسبة للكتابة العربية، فيوصي باستخدام الأقلام القصبية بدلاً من السن المعدني.<sup>(82)</sup>

ارتبط الشدياق بمطبعة الجمعية التبشيرية للكنيسة الإنجليزية في مالطة، وقد عمل بها طوال ثمانية عشر شهراً ما بين عامي 1827 و1828م في تجهيز النصوص الدينية للطباعة، ثم توجه إلى مصر حيث شارك في تحرير وإصدار جريدة الوقائع المصرية، وهو بذلك يعتبر من أوائل المشتغلين بالصحافة في مصر والعالم العربي،<sup>(83)</sup> وهو ما دفعه إلى إصدار جريدته الجوائب في يوم الجمعة 21 ذي القعدة 1277هـ/31 مايو 1861م.<sup>(84)</sup>

تبحر الشدياق في الحديث عن الطباعة بصفتها من أبرز عوامل التمدن والنهضة حيث وصفها بـ «الصناعة الجليلة»، وهو ما شجعه على تأسيس مطبعة الجوائب في عام 1286هـ/1870م.<sup>(85)</sup> تميزت مطبوعات «الجوائب» بالإتقان، وجمال الحروف وتنوعها، وحسن الإخراج وجودة الطبع، كما امتازت بالانتقاء الجيد لكتب التراث، والقيمة الأدبية، وكل هذا يرجع إلى طبيعة الشدياق وعمق معرفته. كما تميزت مطبوعات الجوائب بالتجليد الرائع، الذي ما زال محتفظاً برونقه على الرغم من مرور الوقت، كذلك كان الورق المستعمل فيها قوياً ومن أجود الأنواع في ذلك الوقت، مثل ورق كتاب «الجالسوس على القاموس».<sup>(86)</sup> (شكلا 22، 23)

تلك هي حال الطباعة في تركيا حتى مطلع القرن التاسع عشر، وهي حال لا تحسد عليها إذا قورنت بحال الطباعة في أوروبا، لاسيما في فرنسا وإيطاليا، ولا شك أن الظروف التي أحاطت بالأتراك حكومة وشعباً هي التي حالت دون تقدم الطباعة وانتشارها؛ لأن هذا الفن لا ينمو ولا يزدهر إلا في بيئة تتجاوز معه وترحب به.

لقد ساد الجدل والحوار بين المحافظين والمجددين في تركيا حول جدوى المخطوط والكتاب المطبوع، وبين الكتابة بخط اليد والكتابة بحروف المطبعة، وبين مهنة الناسخ والطابع.



(شكل 23) كتاب الدراسة الأولية في الجغرافيا الطبيعية، طبع في مطبعة الجوائب عام 1301 هـ.

(شكل 22) كتاب الجاسوس على القاموس، طبع في مطبعة الجوائب عام 1299 هـ .

الدراسة الأولية في الجغرافيا الطبيعية

ترجمها من اللغة الفرنسية الى اللغة العربية  
 كرمذى الابيب الفاضل • الامى الاريب الكامل • احمد اندى حسن  
 الرشيدى المصرى

الطبعة الثانية  
 منقولة من الطبعة التي طبعت في مطبعة بولاق بمصر سنة ١٢٥٤

طبع برخصة نقارة المدارس الجليلية  
 تاريخ الرخصة ١٩ غزال سنة ١٣٠١ وعدادها ٣٧٨

طبع في مطبعة الجوائب  
 قسطنطينية  
 سنة  
 ١٣٠١

دافع المحافظون عن المخطوط، وذلك لأنهم يرونه كان أميناً عبر العصور في نقل قيم الإسلام، والعلوم المختلفة كتابياً، وباعتباره وعاء المعرفة التقليدي، فقد حاز عناية خاصة من طرف الناسخين، والعلماء، والمسلمين. أما الكتاب المطبوع فكان المحافظون يرون فيه تهديداً للمخطوط فهو قادم من «بلاد غير المسلمين» للقضاء على الكتابة اليدوية الجميلة، وتعويضها بحروف معدنية كبيرة. بالإضافة إلى أن الكتاب المطبوع كان محل ريبة لأنه قد ينسخ كتباً غير مطابقة للأصل، فيشوهدا ويحرفها مما يحدث اضطراباً وتشويشاً للفكر ثم إن فن الطباعة سيحطم مهنة الناسخين ويحرمهم من موارد رزقهم.

أما المجددون فيرون المخطوط من زاوية أخرى، فهو لم يعد قادراً على نقل القيم ومكاسب الحضارة الإسلامية، ولا على إنقاذ آلاف المؤلفات العربية المهتدة بالفناء بسبب أحداث تاريخية مؤسفة؛ لأن الناسخين كانوا جاهلين ومهملين في مهنتهم وأسأوا كثيراً إلى ميدان الثقافة والعلوم، بالإضافة إلى بطء عملية النسخ، وأخطاء الكتابة العديدة. من ناحية أخرى كان المخطوط نادراً وباهظ الثمن، ولهذا لم يكن سعره في متناول الجميع. وهذا ما تسبب إلى حد كبير في نشر الأمية. كذلك وجد المجددون في الكتاب المطبوع وعاء معلومات المستقبل، وهو قادر على مضاهاة الكتابة بخط اليد من حيث الإبداع، والأهم من ذلك هو قدرته العجيبة على نشر العلوم والفنون في أوساط المتعلمين لأن المطبعة تصدر نسخاً كثيرة من الكتاب الواحد، مما يقلل ثمن الكتاب وبالتالي يزداد عدد النسخ المطبوعة والموزعة.<sup>(87)</sup>

## الكتاب العربي المطبوع في بلاد الشام (سوريا ولبنان)

المحاولات الأولى لإنشاء مطابع عربية في بلاد الشام في القرن 11هـ / 17م<sup>(88)</sup>

منذ الوهلة الأولى وجد المسيحيون العرب ضالتهم في المطبوعات العربية التي تصدر في أوروبا في تنمية ثقافتهم الدينية، وهذا ما دفعهم في البداية إلى طلب المنشورات الدينية العربية من أوروبا، إلا أنهم اكتشفوا أن هذه الكتب لا تتفق في مضمونها مع النصوص المعتمدة في كنائسهم، إذ طغت عليها النصوص الكاثوليكية التي تنوي كنيسة روما نشرها

في تلك الربوع. ولهذا تصدوا جميعاً لمحاولات «رؤمنة» طوائفهم، ولم يتخلف المارونيون رغم ارتباطهم بكنيسة روما عن اتخاذ الموقف نفسه، بل تجاوزوه للقيام بمحاولات لتأسيس مطابع ببلادهم. كانت أولى المحاولات الناجحة نسبياً هي تلك التي أفضت إلى ظهور مطبعة قوزحيا سنة 1018 هـ/1610م. أما بقية المحاولات فلم تتجاوز حد المشاريع دون أن تعرف طريقها للإنجاز.

### المطبعة المارونية بقوزحيا 1018هـ/1610م

اكتسب العلماء المارونيون تجربة كبيرة في مجال النشر بروما وباريس، وفكر أحدهم وهو سر كيس الرزي لدى عودته إلى جبل لبنان في تأسيس مطبعة لفائدة أبناء الطائفة. فالمصدر الأساسي لهذه المؤسسة هو الكتاب الوحيد الذي طبع بها سنة 1018هـ/1610م في قرية قوزحيا وهو «سفر المزامير»<sup>(89)</sup> كان سبب اختيار قوزحيا هو قرب هذا المنسك القريب من طرابلس، حيث يعد مكاناً مقدساً للمسيحيين. إذ يوجد به دير القديس أنطوان الذي يقصده المسيحيون بأعداد غفيرة، ويشرف على هذا الدير أفراد من عائلة الرزي منذ القرن 9هـ/15م، وهذا ما يفسر اختيار أحد أبناء هذه الأسرة لهذا المكان لتنفيذ مشروعه، بالإضافة إلى ذلك الهدوء والأمن الذي تتميز به هذه القرية الجبلية البعيدة عن أنظار الأتراك العثمانيين.

أما أهم وأول مطبوعات هذه المطبعة هو «سفر المزامير بالسريانية»، ويتضمن مائتين وتسعين صفحة وكل صفحة موزعة على عمودين، واحد مكتوب بالحرف السرياني والآخر بالحرف الكرشوني. أي الأول لنص المزامير باللغة السريانية والثاني للنص العربي. إلا أنه كتب بالحرف الكرشوني.<sup>(90)</sup>

إلى جانب المطبعة المارونية أسس المسيحيون ثلاث مطابع عربية في بلاد الشام عامة في النصف الأول من القرن 18 م: في حلب في 1118هـ/1706م، وفي الشوير في 1147هـ/1734م، وفي بيروت في 1165هـ/1751م.

مطبعة حلب (1118 هـ / 1706 م - 1123 هـ / 1711 م)

شهدت مدينة حلب السورية مولد أول مطبعة عربية بالشرق،<sup>(91)</sup> حيث كان لاختيارها عدة أسباب مهمة:

#### أولاً: حلب مركز تجاري كبير بالشرق

تقع مدينة حلب في مفترق عدة طرق تجارية كبرى، وقد استفادت من هذه الخاصية بعد توسع الفتوحات العثمانية، وسيطرة الأتراك على التجارة بين الدول الإسلامية، فاستقطبت جزءاً مهماً من التجارة الدولية. بالإضافة إلى انفتاح الموانئ السورية على التجارة البحرية الأوروبية، حيث تمكنت حلب وهي مدينة قارية من جلب التجار الفرنسيين منذ سنة 970هـ/1562م والإنجليز في 991هـ/1583م.<sup>(92)</sup>

لقد أدى هذا الازدهار التجاري إلى دعم الأقليات الدينية بحلب، وبيروت، وطرابلس، وتطور الحركة الأدبية لديهم، مما جعل حلب مركزاً ثقافياً مسيحياً. ولقد حافظت مدينة حلب على تقاليدها الأدبية بعد الفتوحات العثمانية وطورتها. من ناحية أخرى أثر الأوروبيون على الحركة الفكرية لدى المسيحيين العرب. فإلى جانب التجار الأوروبيين، استقر مبشرون بحلب ارتبطوا بالأقليات المسيحية بهدف تحقيق الاتحاد بين الكنائس الشرقية وروما.<sup>(93)</sup>

#### ثانياً: حلب مركز ثقافي وأدبي

كذلك شهدت مدينة حلب حركة أدبية نشيطة تمثلت في مراجعة وترجمة الكتب الدينية الأرثوذكسية إلى العربية منذ القرن 11هـ/17م، وبرز في هذا المقام كل من عبد الكريم كرمي ومكار الثالث، وكلاهما شغل منصب رئيس الأساقفة بحلب. كما تقلدا على التوالي منصب بطريرك كنيسة أنطاكية. تولى عبد الكريم كرمي مراجعة وإصلاح الكتب الدينية، أما مكار الثالث فقد قام بتأليف الكتب وترجمة بعض النصوص من اليونانية إلى العربية، مستعيناً في ذلك بابنه بولس. ويتمثل هدفهما في ترجمة كل الكتب

الدينية إلى العربية بعد أن أصبحت لغة التخاطب والأدب عند أبناء الطائفة بسوريا في الوقت الذي لم تعد السريانية مفهومة إلا في جبل لبنان وبعض القرى المجاورة لدمشق، وقد حرصا على أن تكون الترجمات العربية حسب الأصل اليوناني.<sup>(94)</sup>

### ثالثاً: حلب مركز الديني

في القرن 11هـ/17م بلغ عدد سكان مدينة حلب من المسيحيين حوالي أربعين ألفاً، ويشمل هذا العدد كل الطوائف المسيحية الممثلة في المدينة في ذلك الوقت، مثل النساطرة، والملكيين، والمارونيين، إلى جانب الأرثوذكس. وقد لعبت أبروشية حلب دوراً رئيسياً في تاريخ الطائفة الأرثوذكسية بداية من القرن 10 هـ/16م، حيث كانت المقر الثاني للبطريرك إلى جانب دمشق.<sup>(95)</sup>

وهذه هي الأسباب التي جعلت من مدينة حلب مركزاً لإقامة أول مطبعة عربية في الشرق، ويبقى أن نتناول الآن جذور نشأة المطبعة العربية في حلب.

### جذور مطبعة حلب: النشر العربي ببوخارست

تأسست مطبعة عربية ببوخارست برومانيا في سنة 1113هـ/1701م بمبادرة وبطلب من الأرثوذكس الملكيين السوريين، الذين أعربوا عن حاجاتهم إلى كتب دينية عربية مطبوعة. وهذه الورشة كانت المصدر المباشر للمطبعة التي أقيمت بعد خمس سنوات في بحلب. فعلاوة على بعض الآلات والتجهيزات التي نقلت منها إلى بلاد الشام، كان أبرز شخص باشر عملية النشر في بوخارست هو بطريرك أنطاكية أثناسيوس الثالث دباس وهو في الوقت نفسه مؤسس مطبعة حلب، وتكمن أهمية مطبعة بوخارست في أنها أول ورشة داخل الإمبراطورية العثمانية تصدر كتباً عربية، كما أنها تعكس تحولاً مهماً في تاريخ الكتاب العربي المطبوع وفي موقف الباب العالي من النشر بالحرف العربي. إذاً يعد تأسيس المطبعة العربية برومانيا تمهيداً لظهور المطابع العربية المسيحية الثلاث، في حلب، والشويرة، وبيروت.<sup>(96)</sup>

## تاريخ المطبعة العربية ببوخارست

لعب البطريرك أثناسيوس دباس دوراً محورياً سواء في تأسيس المطبعة العربي في بوخارست أو في حلب، ولقد شغل أثناسيوس منصب بطريرك كنيسة لمدتين متميزتين. تتلمذ على أيدي اليسوعيين بدمشق قبل أن يعين راهباً في دير قرب بيت المقدس. ثم أصبح مبشراً في بلاط حاكم فلاشيا لمدة قصيرة، ثم عين بطريركاً على كنيسة أنطاكية للمرة الأولى، وأعلن في ذلك الوقت عن اعتناقه للكاتوليكية أمام المبشرين الفرنسيين في سنة 1099هـ/1687م، ثم تراجع بعد ذلك في سنة 1133هـ/1720م، حيث أصبح أرثوذكسياً متصلباً بل إنه اضطهد الحزب الكاثوليكي بحلب ولم يكن موقفه من المذهب الكاثوليكي واضحاً أبداً طيلة حياته. وبعد تخلي أثناسيوس عن كرسي البطريركية لصالح منافسه كيرلس الخامس، قام بعدة رحلات خاصة إلى إستانبول وبلاد الفلاح،<sup>(97)</sup> ففي 1112هـ/1700م تولى في بوخارست إبرام عقد قران ابنة الحاكم قسطنطين برانكوفيانول،<sup>(98)</sup> واغتنم بعد ذلك فرصة وجوده ببوخارست ليطلب من هذا الأمير الذي كان يرفع الأدب والعلوم طبع كتب دينية عربية.<sup>(99)</sup> (شكل رقم 24)

## تأسيس المطبعة العربية في حلب

تتفق المصادر التاريخية على أن مؤسس أول مطبعة عربية بالشرق هو البطريرك أثناسيوس الثالث دباس، وقد ذكر في أهم مصدر أصلي، وهو الكتاب الثاني الذي طبع في حلب الإنجيل سنة 1118هـ/1706م،<sup>(100)</sup> متحدثاً عن دوره في طباعة هذا الكتاب: «فشرعت حينئذ بطبعه بعد أن حررته على اللغة اليونانية بوضعه جملة فجملة وأصلحت إعرابه لفظة فلفظة».<sup>(101)</sup>

استطاعت مطبعة حلب أن تنشر ثمانية كتب من بينها طبعتان معادتان، وذلك من سنة 1118هـ/1706م إلى سنة توقفها في 1123هـ/1711م، وهي كلها كتب دينية طُبعت بغرض استخدامها في كنائس الطائفة الأرثوذكسية الملكية.<sup>(102)</sup> ولم تهدف منشورات حلب إلى إثارة جدال ديني ضد الكاثوليكين وبقية المذاهب المسيحية الأخرى، فقد

كانت بصفة عامة بعيدة عن الصراعات العقائدية التي أثارها المبشرون والكاثوليكيون العرب بحلب. لم تستمر مسيرة مطبعة حلب طويلاً إذ لم تدم سوى ست سنوات فقط، ولم تكن كافية للحكم على مدى تأثيرها على الحياة الثقافية والدينية لدى المسيحيين بسوريا. إلا أنها قدمت فائدة للمطابع التي ظهرت من بعد، مثل الشوير وبيروت إذ كانت نموذجاً لها، وأعدت مطبعيين وحفارين ذهبوا للعمل بجبل لبنان، وبذلك يكون فن الطباعة قد تركز ببلاد الشام بفضل هذه المطبعة.<sup>(103)</sup>



(شكل 24) كتاب القدسات الثلاثة الإلهية، طبع في مطبعة بوخارست عام 1701م.

## مطبعة الشوير 1147هـ/1734م

لم تصدر أى كتب عربية مطبوعة بعد توقف مطبعة حلب عن العمل لمدة ثلاثة وعشرين عامًا، حتى جاء عام 1734م الذى تأسست فيه ثاني المطابع العربية في بلاد الشام، ولكن هذه المرة في الشوير بجبل لبنان وبمبادرة من الملكيين الكاثوليكين.

## نشأة وتأسيس مطبعة الشوير: الصراع بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية

كان لانتشار المذهب الكاثوليكي بسرعة كبيرة في أوساط الأرثوذكس الملكيين في حلب نتيجة للنشاط الكثيف الذي قام به الذي قام به المبشرون الذين أرسلتهم روما وباريس أثره في قيام الأرثوذكس بقيادة البطريرك كيرلس الخامس بشن حملة عنيفة ضد كل مراكز الكاثوليك ببلاد الشام، وكذلك لم يتردد أثناسيوس الثالث الذي اعتلى كرسي البطريركية في 1133هـ/1720م، بعد تراجعه عن الكاثوليكية، فى شن حملة لاضطهاد كل الكاثوليكين واللاتينيين، وذلك بعد حصوله من السلطان على فرمان في 1125هـ/1722م، لمنع الأرثوذكس الملكيين من إتباع مذهب البابا بروما «أو حتى الاتصال بالمبشرين بسوريا». وأمام هذا التهديد لم يجد الكاثوليكيون بداً من الفرار إلى جبل لبنان المنيع، إلا أنهم لم يكتفوا بالتحصن به، بل عملوا على تنظيم صفوفهم ورد هذه الهجمات بشتى الوسائل ومن بينها استخدام فن الطباعة لنشر المذهب الكاثوليكي.<sup>(104)</sup> إذا كان تأسيس مطبعة الشوير سبباً مباشراً للصراع الديني المذهبي بين الكنيسة الأرثوذكسية، والكنيسة الكاثوليكية، وجهود كل من هاتين الكنيستين في استقطاب مسيحيي الشرق.

## عبد الله الزاخر ودوره في تأسيس مطبعة الشوير

(1090 هـ/1680م - 1160 هـ/1748م)

يعتبر عبد الله زكريا الزاخر<sup>(105)</sup> أبرز مؤسسي مطبعة الشوير، وقد واكب نمو الحزب الكاثوليكي والتطور الذي حصل له في القرن 12 هـ/18م. كان والداه أصلاً كاثوليكين من حماة، التي تعلم فيها العربية العامية، وكانت مهنة أبيه الصياغة، ثم غادر حماة في

1113 هـ/1701م للاستقرار بحلب في صحبة ابن عمه نيقولا الصائغ، حيث درس الأداب العربية لدى العالم المسلم: الشيخ سليمان الحلبي النحوي. ثم درس الفلسفة والعلوم الدينية المسيحية لدى الأب يوحنا بجع.<sup>(106)</sup>

أقيمت المطبعة بدير مار يوحنا بالشويرة منذ 1144هـ/1731م قبل أن تستكمل كل معداتها، وكان الزاخر قد أسس المطبعة في أول الأمر في قرية زوق ميكايل حسب حوليات الرهبانية الشويرية قبل أن ينتقل إلى الشوير. اختار عبد الله زاخر الشوير لأنها تضم ديراً جيداً أقامته الرهبانية الباسلية الناشئة التي لم يكن رئيسها سوى ابن عمه نيقولا الصائغ، والذي دعاه وشجعه للإقامة بالدير وساعده في عمله. وكذلك فإن موقع الدير في جبل كسروان قرب الخنشارة يجعله بعيداً عن أنظار السلطات العثمانية. وبطارقة أنطاكية، وقد شجع الزاخر على الإقامة هناك النشاط الأدبي الحثيث الذي عرفه الدير. ولا يزال مبنى المطبعة موجوداً ومحافظاً على شكله الهندسي الأول بعد ترميمه، ويتكون من ثلاث قاعات: واحدة للتنضيد وتضم صناديق الحروف حيث توصل عبد الله إلى إعداد الأحرف العربية،<sup>(107)</sup> وأخرى للطباعة وتضم آلات الطبع، وثالثة لسبك الرصاص وإعداد الحبر وتضم الأدوات اللازمة لهاتين العمليتين.<sup>(108)</sup>

أصدرت مطبعة الشوير فيما بين 1147هـ/1734م-1201هـ/1787م، تسعة عشر كتاباً من بينها أحد عشر كتاباً أعيد طبعها. وقد أعيد طبع بعض الكتب مثل: «المزامير» (خمسة مرات)، «الرسائل» (ثلاث مرات)، «الأورولوجيون» (مرتين)، «الأكطويخوس» (مرة واحدة). وكان معدل نشر الكتب في تلك المدة هو كتاب واحد لكل سنتين، إلا أن درجة التواتر تختلف فهناك سنوات طبع فيها أكثر من كتابين مثل سنة 1152هـ/1739م التي شهدت صدور ثلاثة كتب «المزامير»، و«احتقار أباطيل العالم»، و«الافتداء بالمسيح»، أما سنة 1178هـ/1764م فقد شهدت صدور كتابين «المزامير»، «البرهان الصريح».<sup>(109)</sup>

لقد حرص عبد الله الزاخر ورؤساء الرهبانية الشويرية على تشجيع القراءة وذلك بنشرهم لكتب مكتوبة بخط جميل واضح، وأحياناً ببعض الكتب الحركات والعلامات

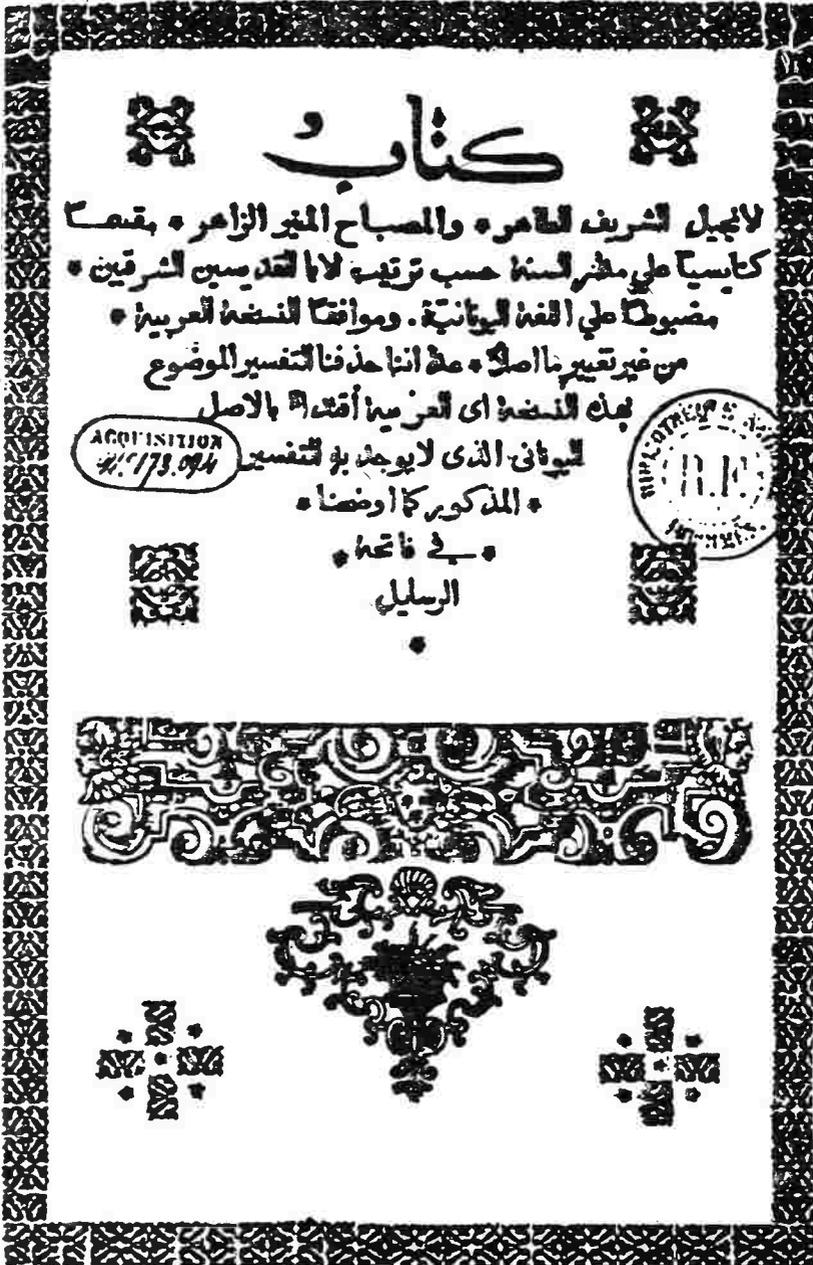
على الحروف العربية. واستعمل الحبر الأحمر والأسود لمزيد من الوضوح، وحرصت المطبعة على إرسال هذه الكتب ووضع الأختام المذهبة عليها لتعطيها رونقاً وجمالاً أكثر، هذا من حيث الشكل، أما من حيث المحتوى فالنصوص الدينية تمت مراجعتها سواء منها الكتب المقدسة التي وقع تحقيقها حسب الأصل اليوناني أو النصوص الحديثة التي تمت مراجعة ترجمتها، وإصلاح الأخطاء اللغوية والنحوية من قبل بعض الكفاءات. والهدف من ذلك هو دفع الطائفة إلى اعتماد هذه الكتب المطبوعة دون المخطوط منها الذي لم يعد قادراً على مضاهاتها لا من حيث الشكل ولا من حيث دقة المحتوى.<sup>(110)</sup> (شكل رقم 25)

### مطبعة بيروت

تعد بيروت من المدن التجارية المهمة وقد ازدهرت خاصة في عهد الأمير الدرزي فخر الدين الثاني. وقد استقر بها التجار الأوروبيون وخاصة من البندقية، وأسسوا بها مصارف وقد استغل المارونيون والروم الأرثوذكس هذه الوضعية لتوسيع تجارتهم.<sup>(111)</sup> تعتبر المطبعة العربية ببيروت ثالث المطابع التي أسست في بلاد الشام، والثانية في لبنان بعد مطبعة الشوير. وقد تشابهت ظروف نشأة المطبعة العربية ببيروت مع ظروف تأسيس مطبعة حلب، إذ إن بطريك أنطاكية تحول إلى رومانيا لطبع كتب دينية قبل أن يتوصل إلى تأسيس مطبعة جديدة في جبل لبنان، وذلك بفضل مساعدة بعض الأغنياء ببيروت، وهو البطريرك سلفستروس القبرصي.

### البطريك سلفستروس

خلف البطريرك سلفستروس القبرصي أنناسيوس الثالث على كرسي البطريركية بين سنتي 1137هـ/1724م و1180هـ/1766م، وقد ولد سلفستروس في 1108هـ/1696م بقبرص وتعلم على يد أنناسيوس ثم عين راهباً في دير جبل طوس، قبل أن يصبح بطريكاً لأنطاكية بقرار من بطريك القسطنطينية، وذلك لمنع ازدياد عدد الملكيين الكاثوليكين ببلاد الشام. سافر سلفستروس إلى رومانيا في 1157هـ/1744م، حيث مكث بها مدة



(شكل 25) كتاب الانجيل المطبوع في مطبعة الشوير عام 1776م.

أربع سنوات واستقر هناك في جاسي قرب بوخارست، وقد لقي ترحيباً كبيراً من حاكم بلاد الأمير قسطنطين ابن نيقولا بك، الذي ساعده هناك على طبع كتب عربية. (112)

### تأسيس مطبعة القديس جاورجيوس ببيروت

هناك روايتان مختلفتان حول ظروف تأسيس مطبعة بيروت وخاصة حول مؤسسها. والثانية إذا تذكر الرواية الأولى أن مؤسسها هو البطريرك سلفستروس تذكر اسماً ثانياً وهو أبو عسكر أحد الروم الأرثوذكس. إذ يبدو أن كلاً من الرجلين قد لعب دوراً معيناً في عملية تأسيس المطبعة؛ فالبطريرك سلفستروس هو الذي أعد المشروع منذ أن كان في بوخارست، ولكنه لم يتمكن من تنفيذه إلا بفضل المساعدة المالية التي قدمها أغنياء الطائفة الأرثوذكسية لبيروت، وخاصة منهم أبو عسكر الذي يتمتع بنفوذ واسع لدى أبناء طائفته وأيضاً لدى السلطات العثمانية. إن دور أغنياء الأرثوذكس في إصدار المنشورات العربية كان كبيراً، فهم الذين أسهموا كما رأينا في صرف الأموال اللازمة لطبع بعض كتب حلب، ويبدو أن إخوانهم ببيروت قد ساروا على نهجهم وهم الذين استفادوا بدورهم في تحقيق بعض المشاريع الدينية، والاجتماعية، والثقافية لفائدة طائفتهم. ويمكن القول إذاً إن البطريرك سلفستروس هو الذي لعب الدور الأساسي في تأسيس مطبعة بيروت مع الاستفادة من مساعدة أبي عسكر المالية، وكان له من الخبرة العلمية والفنية ومن النفوذ الديني ما يؤهله لتنفيذ المشروع.

لقد كان ظهور المطبعة بداية عهد جديد، عهد يقظة الطائفة الملكية الأرثوذكسية وتدعيم هويتها حسب قول البعض، وعهد نهاية الانشقاق وبداية الاتحاد مع كنيسة روما حسب قول البعض الآخر. إن نتائج نشاط المطابع الثلاث لم تكن على الدرجة نفسها من الأهمية، ذلك أن تأثير ورشتي حلب وبيروت لم تكن على الدرجة الدينية والثقافية، بل كان محدوداً لأنهما لم تعمرا طويلاً إذ توقفتا لبضع سنوات بعد تأسيسهما، في حين أن مطبعة الشوير تمكنت من التغلب على المصاعب الفنية والمالية وواصلت نشاطها إلى نهاية القرن 13هـ/19م. وحقت بعض النتائج الإيجابية؛ إذ طبعت في ظروف نصف قرن

تسعة وعشرين كتاباً عربياً مسيحياً وأسهمت في تنمية الرغبة في المطالعة ووفرت الكتب للمتعلمين بأسعار مناسبة.

وعلى الرغم من محدودية نشاط هذه المطابع، فإنه لا ينبغي إغفال إسهامها في إدخال حراك ثقافي جديدة في الحياة الثقافية. فعملية إقامة مطابع تعد في حد ذاتها تحولا مهماً في المسار الثقافي للعرب، الذين وقفوا على مزايا هذه الأداة الثقافية الجديدة لمضاعفة إنتاج الكتب، ونشر المعرفة، وتنمية المطالعة، وبذلك يكونون قد وضعوا الركيزة الأساسية لحركة النهضة الأدبية التي شهدها القرن التالي، إذ غرست تقاليد جديدة لدى المتعلمين العرب وتمثل في التعامل مع الأدوات الثقافية الحديثة التي ستسمح لهم فيما بعد بمواكبة التطور العلمي الذي حققته أوروبا.

#### المطبعة الأمريكية ببيروت 1834م

تعتبر المطبعة الأمريكية ثاني المطابع التي أنشئت بمدينة بيروت ورابع مطبعة عرفتها لبنان، ونستطيع أن نقول إن فن الطباعة بمعناه الصحيح لم ترسخ أقدامه في لبنان إلا حين قرر المبشرون الأمريكيون نقل مطبعتهم من مالطا إلى بيروت في سنة 1834م، ويعود تاريخ تأسيس تلك المطبعة إلى سنة 1822م، حين اتخذ المبشرون الأمريكيون جزيرة مالطا قاعدة لنشاطهم في الشرق الأدنى، حيث قرر مجلس الإرسالية في أمريكا تأسيس مطبعة في تلك الجزيرة لنشر الكتب للتبشير بالمسيحية حسب المذهب البروتستانتية.

اهتم هؤلاء المبشرون أول ما اهتموا بترجمة نشرات التبشير المكتوبة باللغة الإنجليزية، وأول مطبوع صدر عن مطبعة مالطا الأمريكية كان رسالة عنوانها «السبت»، وتبعتها رسائل أخرى نشرت باللغات الإنجليزية، واليونانية، والإيطالية، والأرمنية، والتركية وأرسلت نسخ منها إلى مصر، وسوريا، واليونان، وقد حالف النجاح تلك المطبوعات، مما شجع أصحاب الشأن على زيادة العناية بمطبعتهم فقرروا توسيعها ومضاعفة الاهتمام بها، ونشرت المطبعة بعد ذلك الكتب المدرسية المختلفة، وفي 8 مايو سنة 1834م نُقل

القسم العربي من المطبعة إلى بيروت حيث تخصص في نشر المطبوعات العربية وتوزيعها على الناطقين بلسان الضاد في أنحاء الشرق العربي.

وصلت المطبعة الأمريكية إلى بيروت في وقت كانت فيه الحالة الثقافية في لبنان شديدة السوء؛ فالأمية متفشية بين السكان، والمدارس نادرة، وإن وجدت فهي عبارة عن كتاتيب صغيرة ملحقة ببعض المساجد؛ والكنايس لا تروى غليلاً، ولم يكن نشاط المطبعة في أول الأمر متواصلاً، فقد توقفت سنة 1835م لعدم وجود الفنيين، وتوقفت مرة أخرى بين سنة 1839م وسنة 1841م بسبب الاضطرابات التي وقعت في بيروت وغيرها من المدن اللبنانية والسورية في أواخر عهد السيادة المصرية على تلك البلاد، فرحل المبشرون الأمريكيون عن بيروت بعد أن أصبحت ميداناً للحرب، وحين عاد المبشرون الأمريكيون إلى مقرهم ببيروت كانت المطبعة على ما هو عليه لم تمسها يد.

شعر المبشرون منذ سنة 1836م أن الحروف التي يستعملونها في مطبعتهم رديئة، وكانوا يطلقون عليها اسم «حروف لندن»، فتعهد الدكتور سميث بإصلاحها وسافر إلى ليبزج بعد أن حمل معه نموذجاً من خطوط بعض مشاهير الخطاطين في مصر، والأتانة، والشام.

وتم صنع الحروف العربية الجديدة وطبعت بها أول ما طبعت كتب المطالعة والتعليم المسيحي ومبادئ النحو للشيخ ناصيف اليازجي وغيرها من الكتب، فكانت أول مطبعة تسبك الحرف العربي المشكل المعروف «بالأمريكي».

ثم استمرت المطبعة الأمريكية حتى الثلث الثاني من القرن التاسع عشر تزود لبنان بالكتب المدرسية والعلمية والدينية، ولم يقتصر الأمر على هذا بل أخذت كذلك تزود المطابع التي أنشئت في ذلك العهد بالحروف، وظلت المطبعة الكاثوليكية المنافسة للأمريكيين ونشاطهم الديني في البلاد تستعمل حروف المطبعة الأمريكية زهاء خمس عشرة سنة.

لقد كانت بدايات الطباعة صعبة ومعقدة؛ بالإضافة إلى أنها لم تكن معلومة النتائج، لكن النهاية كانت خير دليل على بداية اليقظة والإصلاح في المجتمعات الشرقية لتغيير عادات وثقافات ظلت مئات السنين هي مصدر الإلهام الأول لكل سياسات المجتمع وتوجهاته.